المحاضرة الثالثة:

نوبرت إلياس والبنيوية التكوينية:

أولا–رائد معاصر: نوبرت إلياس Norbert Elias:

يعتبر نوبرت الياس(1897–1990) من علماء الاجتماع الذين أثاروا اهتماما متزايد منذ سنوات 1980 والذين طوروا أعمالهم ضمن سياقات زمانية ومكانية مختلفة، للبحث عن معايير جديدة بين الموضوعي والذاتي أو الجماعي والفردي، عرف بأعماله في علم الاجتماع التاريخي حول عملية التحضر في الغرب كما انه طور استطلاعات أكثر معاصرة عن الجماعات الاجتماعية والرياضية .

ولد إلياس في سنة1897 لأبوين يهوديين من أصل ألماني، درس الطب والفلسفة، وتخرج بدكتوراه الفلسفة عام 1922، وانتقل إلى هيدلبرغ، حيث عمل مع ألفريد فيبر قبل أن يصبح مساعدا أكاديميا لكارل مانهايم في فرنكفورت عام 1929، ثم لجأ الى باريس فار من النازيةسنة 1933، وبعدها الى بريطانيا واستقر في إنكلترا سنة 1935، وحصل على منحة جامعية بحثية في مدرسة لندن للاقتصاد وسمحت له ثلاث سنوات من البحث في المتحف البريطاني بإكمال ما يعتبر عمله الكبير The Civilising Process الذي نشر في سويسرا عام 1939، ولم يصدر باللغة الإنكليزية حتى عام 1978، وحصل عام 1958 على منصب أكاديمي في جامعة لاستر (leicester)، ثم حصل في ما بعد على مناصب جامعية في غانا وفرانكفورت وبيلفيد وأمستردام، وتوفي في عام 1990 عن عمر الثالثة والتسعين.

ثانيا–البنيوية التكوينية عند نوربرت الياس:

يطلق نوربرت إلياس مفهوم التكوين على الصيغ الخاصة للتبعية والتي تربط أفعال الأفراد التابعة بينيا بعضها لبعض لتشكل صورة مجتمع بوجه غير مخطط له سلفا وإنما مؤسس على إرادة مشتركة وقصدية بين هؤلاء الأفراد كمجال تفاعلي أساسي ضمن فكرة التضاد الذاتي، حيث يتحرك الفرد في اتجاهات مضادة لبقية الأفراد على ضوء تحركاتهم مشكلين تكوينا عبر مراحل تكوينها التاريخي وصولا إلى بنية ذات طبيعة تفكيكية وتركيبية

للعلاقات المتبادلة التي تجمع أفعال الأفراد وتعقيداتها الاجتماعية ضمن عمليات تشكل البنى وتعكس رؤية تصورية لجماعته.

يؤكد الأسلوب التصويري المجازي الذي وصفت به مقاربة نوربرت الياس ضمن علم اجتماع تصويري مجازي Figurational، أو علم إجتماع المعامل Procecc Docuology الذي فضله كتسمية نتيجة المعالجة التي تتم بواسطتهاالعمليات التكوينية للكائنات البشرية التي تشكلت في ظل علاقات التبعية المتبادلة، و البناءات الاجتماعية التي يكونونها مع بعضهم بعضا، ذات الآليات الناشئة، والتي لا يمكن التقليل من شأنها، باعتبارها أفعالا أو دوافع فردية.

حيث تشكل هذه الآليات الناشئة نمو، وتطور، ومسار حياة الأفراد، ويؤكد أن التصورات في حال سيولة وتحول دائم، وأن التحولات الطويلة المدى في التصورات الاجتماعية البشرية غير مخطط لها وغير منظورة في أغلب الأحوال وينظر إلياس إلى تطور المعرفة على أنه يتم داخل مثل هذه التصورات، التي تعتبر بنية داخلية للأفراد والتي تعيد تركيب بناه ارتكازا على الدلالة الاجتماعية التي يتجه إليها كبنية خارجية، والتي أنتجت الفعل وأخرجته إلى الوجود لأنها تتصل مباشرة بتكوينه عبر مسارات تاريخه، وإيديولوجيته، وبنيته العميقة. ومن ورائها الجماعة الاجتماعية التي تحرك إرادتها المعبرة إما تفاعلا، أو تسليما، أو رفضا للوضع السائد في المجتمع.

وهذه البنى المرتبطة بعلاقات التبعية البينية التي تربط الافراد فيما بينهم، مشكلين تكوينيا يظهر بأحجام متفاوتة في أفعال تابعة بينيا ببعضها البعض، منفذة باستقلالية نسبية تمثل نقلة على الرقعة الاجتماعية وتثير بشكل لا مفر منه نقلة مضادة، يقوم بها عدد كبير من الافراد وسط نسيج متحرك متغير للعديد من التبعيات المتبادلة التي تربط الافراد بعضهم ببعض، وصولا الى العلاقات الدولية. وبهذا يحيل تصور الفرد الى أناس تابعين بعضهم لبعض، لكن بصيغة المفرد، ويحيل تصور المجتمع الى أناس تابعين بعضهم لبعض لكن بصيغة الجمع. مؤكدا ان ما يفرق بين هذه التكوينات هو طول سلاسل العلاقات المتبادلة التي تجمع الافراد وتعقيداتها ويكونون مرهونين بها.

وهذا ما بينه إلياس في كتابه "مجتمع البلاط société de courومختلف الضغوطات التي يواجهها نبلاء البلاط في عهد لويس الرابع عشر، الذي لا يستطيع ان يفعل كل ما يحلو له وان كان هامش فعله أكبر من

هامش الفاعلين الأخرين في المجتمع الفرنسي آنذاك، ذلك لأنه هو ايضا حبيس شبكة من التبعيات البينية الخاصة بمجتمع البلاط. مفهوم التبعيات البينية ومفهوم هامش الفعل الملازم له يسلطان ضوء جديدا على موضوع دور نبلاء البلاط عبر التاريخ .

فنظر لفهم البلاط للنبالة، حيث تحدد الرتبة والمكانة وفقا لحجم الإنفاق، باعتباره نقيضا للفهم الاقتصادي للبرجوازية، حيث يخضع نمط الاستهلاك للدخل. وقدم تحليل مجتمع البلاط تصحيحا ملموسا لمناقشات ماكس فيبر العقلانية الأدواتية (Instrumental) والقيمة (Value Rationalty)، وكذا تعديل التناقض الثنائي البسيط لدى ماركس بين الإقطاع والرأسمالية، وكانت هذه التنظيرات محل اهتمام كتاب عملية التحضير الذي اعتمد على ماركسMarx ومانهايم Mannheimوفيبر Fiber وسيميلSimel، وفرويد Freudفي تناول التحولات السيكولوجية والسلوكية بين الطبقات العليا العلمانية في الغرب، وأظهر أن هذه التنظيرات مرتبطة معا بعمليات تهدئة داخلية وتكوين الدولة، وتساءل كيف أن طبقات يعينها في الدول المتقدمة في غرب أوروبا تفكر في نفسها على أنها متحضرة؟، وكيف يصبح ذلك معمما بوصفه دلالة على التفوق الغربي على الثقافات غير الغربية؟

الامر الذي رصده إلياس ضمن تحولات بعيدة الأجل في الأساليب والقوانين السلوكية، وفي حدود التعارض بخصوص الوظائف الجسدية المادية، وهي مرتبطة كلها بعملية التعديل الذاتي أو التحول الداخلي Internalization للقيود الاجتماعية، والذي يعمل على "تنظيم أعمال العديد من الأفراد دائما في سلاسل طويلة من السلوك والعمل، حتى يكون هناك معزى لكل عمل وسلوك فردي وبهده الطريقة يكون طل شخص في الواقع مرتبطا فعليا بسبب تلازمه العملي مع أفراد يحيا معهم ويكون بذلك عضوا في السلاسل التي يشكلها الآخرون ويكون كل واحد آخر، بشكل مباشر أو غير مباشر عضوا في سلسلة تشمله هو أيضا فيما تشمل"، وكما تتبعت أعمال إلياس تأسيس إعادة مميزة متعلقة بتزايد قيود الأنا العليا Superego على الدوافع والمواجهات الفاعلة بما فيها السلوك العنيف، باعتباره جانيا مكملا لمجتمع البلاط، وأصبحت أساليب الطبقة العليا وحساسيتها المؤثرة – من خلال عمليات التمييز والتقليد– معممة بوصفها نماذج للسلوك المهذب، وأصابها اللبس المنتظم من خلال طبقة Stratum أخرى.

وذلك لأن التبعات البينية التي يعلق الافراد بها لا تقوم بدور القيود الخارجية فقط انما تتدخل في صياغة البنى الداخلية لشخصهم. وبذلك ينخرط الفرد طوال حياته في عدد من شبكات العلاقات التي سبقته في الوجود كالأسرة وجماعة اجتماعية... والتي هي في الغالب منتجات تاريخية طويلة وهي تساهم في تكوين أشكال ميوله وفكره، وتكون كبصمة اجتماعية تمهر الشخصية، وهي منتج تكوينات عدة يتصرف الفرد في داخلها لتبدو كمظهر شامل، ولكنه متغير دائما يشكله الافراد.

ورغم ان هذا التحول مبني وموجه لكنه أعمى وغير مخطط له، ضمن تاريخ الوسائل التي يوليها الياس مكانة مركزية في تشكيل الدولة والأصول الاجتماعية Sociogenesis للدول الاستبدادية، وعمل على إظهار كيف ان عملية التحول الداخلي للقيود والتحول الناتج في القوانين السلوكية مرتبطة بالتحولات في تقسيم العمل، والتحولات الجغرافية، والتهدئة المجتمعية (Societal Pacification)، والتحضر، والنمو التجاري، والاقتصاد النقدي.

حيث يؤكد أن نمو الاقتصاد النقدي الحضري، يؤدي إلى تسهيل إنجاز السلطة المركزية في الدولة واحتكار العنف، وكان تزايد استخدام مثل هذه الدوائر الاقتصادية قد أتاح المجال أمام تزايد الموارد العسكرية للنبلاء المحاربين، الذين كان مصدرهم الأساسي للسلطة الاقتصادية والعسكرية هو التحكم في الأرض. وأدى هذا إلى تغيير الطبقة المحاربة المستقلة سابقا إلى طبقة عليا تابعة للبلاط، ويسهل الهدوء الأكبر حجما التجارة والنمو الاقتصادي، الذي يؤدي بدوره إلى تأمين السلطة الاقتصادية والعسكرية لسلطة المركزية.

كما يؤدي إلى تزايد سلطة الطبقات الوسطى وعندما تتعادل كل من السلطة المركزية، ويؤدي إلى تزايد سلطة الطبقات الوسطى، وعندما تتعادل كل من السلطة الارستقراطية المتدهورة، وسلطة الطبقة المتوسطة المتزايدة تقريبا، فإنه يمكن للأسر الحاكمة أن تطالب بـ السلطة المطلقة، وعادت هذه التطورات المنتظمة على نبلاء البلاط بمزيد من الأنماط المقيدة للسلوك، أخذت القيود الخارجية المرتبطة بعلاقات السلطة لتكوين الدولة في التحول داخليا، بصورة تدريجية، بوصفها قيودا ذاتية، مسببة تحولا مميزا في العادات وبناء الشخصية.

كما يؤكد إلياس أن عمليات التحضير ترتبط في أحد جوانبها بعمليات التحول الروتيني(Routinization)التي تؤدي إلى مشاعر بالتفاهة الشعورية بين الناس، ونتيجة ذلك، قامت المؤسسات بتطوير ما يؤدي وظيفة تفكيك

التحول الروتيني من خلال الحركة، والقدرة الاجتماعية، ولإثارة، والتجديد وهو ما يضعنا أمام ملامح مشتركة لبعض الأنشطة الرفيعة، مثل الفنون، والانشطة الدنيا، مثل الرياضة، وجعل تحليله مواكبا للأحداث في مؤلفه The Germans، وكان اهتمامه المحوري ينصب على تطوير العادات الألمانية ودمجها مع مواصفات عسكرية، وكيف شكل ذلك أساسا مهما لإعلاء شأن النازية.

إن أفضل تقديم لأسلوبه النظري هو مؤلفه What is Sociologt حيث يعيد رأيه بوجوب أن يتفادى علماء الاجتماع معاملة الأفراد أو المجتمعات ككل، بوصفهم معطيات ثابتة وهذا – كما يرى إلياس– انعكاس للغة، وصياغة مفهومه غير ملائمة تقلل من العمليات التي تقوم بها الدول كما يتطلب علم الاجتماع العلمي (Scientific Dociology) أن تحل رؤية قائمة على التعددية للناس العامة، بدلا من الرؤية الفردية المقربة (Closed Person view)، وهذا هو أساس الرؤية المتصلة للسلطة المرتبطة بوظائف الأفراد بعضهم ببعض، وهو اعتراف بأن سيكولوجية الأفراد وطريقة الرؤية تظهر من منطلقات تصويرية يكون فيها الفرد مشاركا.

لتظهر بهذا قدرة إلياس على المزج بين الأوصاف الجزئية والأوصاف الكلية للعمليات الاجتماعية للتكوين، وعلى تجاوز الانقسام الثنائي بين الفرد والمجتمع، وعلى المزج بين الرؤية النظرية العميقة والسعة المذهلة للبرهان التجريبي، وعلى تقديم وصف اجتماعي وتاريخي دقيق وثابت للعالم، قد ظهرت في: عملية التحضر، وفي دراسته عن الموسيقار النمساوي، موزار: بورتريه للعبقرية، وهو ما كفل له مكانا بين كبار المفكرين السوسيولوجيين.